فيدل كاسترو

1926 – 2016

فيدل كاسترو ودولة كوبا الجديدة توأمان. عمر الثورة التي قادها فيدل، وأسست لدولة كوبا الإشتراكية، يزيد عن نصف قرن. أما عمر الدولة الجديدة فهو يقترب من نصف قرن. في حين أن فيدل كاسترو، مفجر الثورة والزعيم التاريخي للدولة الإشتراكية الأولى في القارة الأميركية، قد تجاوز الثمانين من العمر. هذه التواريخ، والأحداث التي تشير إليها، والأعوام التي ترتبط بها إنما تعبّرعما يمكن أن نسميه ظاهرة فيدل كاسترو.

فما هو سر هذه الظاهرة؟ وما هي العناصر الأساسية التي تكونت منها؟

سيكون من التبسيط في قراءتنا للتاريخ الإستنتاج السريع بأن ظاهرة فيدل كاسترو هي خلاصة مبسطة للجمع والربط بين هذا الزعيم وبين هذه الأحداث والتواريخ. فإذا كان ظاهر الأمور يشير إلى مثل ذلك فإن المسألة هي أكثر تعقيداً من ذلك. فالقراءة الدقيقة لهذا التاريخ، ولأي تاريخ بصورة عامة، إنما تتطلب التعمق في البحث في الشروط التي تجعل زعيماً ما في بلد ما ظاهرة من نوع ما نحن بصدد البحث فيه وعنه. ذلك أن الأفراد العظام في التاريخ إنما يختلفون في السمات التي تعبّر عن شخصية كل منهم. وتختلف الشروط التي يولدون فيها والتي تساهم في توليدهم. وتختلف الوسائط والأدوات التي يبتدعونها، أو التي تهيئها لهم تلك الشروط في بلدانهم. كما تختلف طرائق تعاملهم مع الأفكار التي يطلقونها أو التي ينتسبون إليها كمرجعيات لهم. ويختلف تعاملهم مع القيم ذات الصلة بالتقدم الإنساني في بلدانهم وذات الصلة بحرية شعوبهم وبسعادتها، باعتبار أن هاتين الحرية والسعادة هما الهدف الأسمى المعلن نظرياً لدى كل حركة من الحركات الإصلاحية، ولدى كل ثورة من الثورات، ولدى زعماء هذه الحركات والثورات، سواء منها ما يحفل به التاريخ الحديث أم تلك التي حفل بها التاريخ القديم للبشرية.

يقودني إلى هذا الكلام في الحديث عن فيدل كاسترو الحذر الذي تولد عندي، على امتداد ما يقرب من ستين عاماً من حياتي السياسية كشيوعي وكشاهد على عصر حفل بأحداث كبرى ميّزته عن العصر الذي سبقه. ذلك أن أحداث هذا العصر كانت أحداثاً من نوع مختلف جوهرياً عن أحداث العصر السابق. وكان من أبرز ما ميّز العصر الحديث،

منذ مطالع القرن العشرين حتى نهاياته، قيام ثورات عظمى ارتبطت بمشروع لتغيير العالم كان قد أطلقه في القرن الأسبق كارل ماركس باسم الإشتراكية. وهي ثورات قادها زعماء كبار، لكل منهم سماته الخاصة به المختلفة في أساسياتها وفي تفاصيلها عن سمات الآخرين. كان أول هؤلاء الثوار لينين. ثم جاء بعده على التوالي ستالين وماوتسي تونغ وهوشي منه. وكان آخر العقد في تلك "السلسلة الذهبية" فيدل كاسترو.

رحل الكبار من قادة الثورات الأولى. وبقي فيدل كاسترو وحده يصارع باسم الإشتراكية القديمة رياح العصر الحديث العاتية. وهي ذاتها الرياح التي رافقت نضالاته منذ البدايات في قيادة الثورة الكوبية، ورافقت انتصاراته في تلك النضالات بعد انتصار الثورة. وكان في قيادته لكوبا أميناً على طريقته لتعاليم الإشتراكية كما فهمها عندما انتسب إليها في شبابه في أعقاب انتصار الثورة التي قادته بعد انتصارها إلى الخيار الشيوعي وإلى إدخال كوبا في المنظومة الإشتراكية، وذلك في شكل متعرج ومتدرج وخطوة خطوة. ذلك أن فيدل، حين أطلق ثورته في مطالع خمسينات القرن الماضي، لم يكن شيوعياً ملتزماً. لكنه كان صديقاً للشيوعيين من بعيد. كان شقيقه راوول عضواً في الحزب الشيوعي. أما هو فكان مثقفاً يسارياً ديمقراطياً. وكان ينتمي مع شقيقه راوول إلى عائلة من كبار ملاّكي الأراضي. لكنه كان يحمل أفكاراً ثورية مليئة بالرغبة في التحرر وفي التغيير. وكانت تلك الأفكار تحكمه وتتحكم في حركته، وهو يناضل من أجل تحرير بلده من دكتاتورية باتستا التي كانت قد أصبحت عبئاً على كوبا وعبئاً على السياسة الأميركية ذاتها في القارة. وكانت أفكار كاسترو الثورية الأولى، في نظر بعض معاصريه ومن بينهم بعض الشيوعيين، أفكاراً تتصل بمطامح شاب مغامر. بل إنه ظل، حتى بعد انتصار الثورة ولبضع سنوات، أسير أفكار وسياسات جامحة في تطرفها. أو هكذا كنا ننظر إليه ونقيم مواقفه، نحن شيوعيي تلك الحقبة، في الوقت الذي كنا فيه ننظم المظاهرات تضامناً معه ومع بلده، ويدخل الكثيرون منا في السجون من جراء ذلك التضامن الأممي. لكن فيدل كان يزداد اقتراباً من الشيوعية ومن أفكارها ومفاهيمها كلما كانت الثورة تتقدم، وكلما كانت تلقى تجاوباً من

الشعب الكوبي ومن فلاحيه وعماله الفقراء خصوصاً. وكان للحزب الشيوعي دور بارز في ذلك. تمثل ذلك الدور في شكل خاص بالإضراب الذي أعلنه الحزب بقيادة أمينه العام بلاس روكا في العاصمة هافانا تمهيداً لدخول الثوار إليها، واستقبالاً شعبياً عامراً لها ولهم ولشعاراتها ولأفكارهم فيها. وإذ أصبح كاسترو شيوعياً بالتدريج، كما أشرت إلى ذلك، فإنه لم يصبح قائداً للحزب الشيوعي إلا في المؤتمر التأسيسي للحزب الذي عقد في عام 1975. ومعروف أن فيدل كان قد أسس مع انطلاق الثورة حركة تحمل اسم حركة 26 تموز نسبة إلى الهجوم الذي قاده كاسترو ضد الحامية العسكرية (المونكادا) في مدينة سانتياغو في عام 1953. ولأنه أدرك أهمية وضرورة توحيد القوى الثورية بعد انتصار الثورة، فقد بادر إلى الإتفاق مع الحزب الشيوعي ومع التنظيم الطلابي الذي كان قد تأسس في مطالع الخمسينات قبل انطلاق الثورة، بمشاركة شقيقه راوول ورفيقيه فالدس فيفو وجورج ريسكيه فالدس، تشكيل نوع من الإتحاد بين هذه التنظيمات إعداداً لتشكيل الحزب الذي سيقود كوبا الإشتراكية. وكان هذا الحزب هو الحزب الشيوعي الجديد الذي تأسس رسمياً في عام 1975 وانتخب فيدل كاسترو أميناً عاماً له، يشاركه في القيادة رفاقه الأوائل الذين أشرت إليهم وعدد من كبار قادة الحزب الشيوعي القديم، ومن بينهم بلاس روكا ورافائيل رودريكز وآخرون. وكان قد التحق بالثورة منذ انطلاقتها الثانية في عام 1956 عدد كبير من القياديين الأساسيين في الحزب الشيوعي، ومن كوادره ومناضليه ومثقفيه. وصاروا رفاق درب كاسترو، وكبار معاونيه وشركاءه في بناء الدولة وفي مواقع أساسية في مؤسساتها. وكان هؤلاء الشيوعيون بالذات القدامى منهم والجدد، باستثناء عدد قليل منهم رفاقاً لكاسترو في إعادة تأسيس الحزب الشيوعي الكوبي، بقيادته وعلى أسس جديدة مختلفة عما كان عليه الأمر في الحزب الشيوعي القديم. وكانوا شركاء له في عملية البناء الصعبة لدولة كوبا الإشتراكية التي صمدت في وجه التدخل الفظ وفي وجه الحصار الظالم الذي فرضته عليها الولايات المتحدة الأميركية الجارة العظمى لكوبا.

لست هنا في معرض التأريخ للثورة الكوبية. فقد كتب الكثير عنها منذ بداياتها وبعد انتصارها، وحتى هذه اللحظة التي مضى فيها على تلك الثورة ما يزيد عن نصف قرن. ما يهمني في هذه السطور هو الحديث عن فيدل كاسترو كظاهرة في تاريخ الثورات المعاصرة. ولأن الصدف التاريخية وضعتني في الموقع الذي أتاح لي متابعة ولادة الثورة الكوبية منذ إرهاصاتها الأولى المتمثلة بالهجوم المسلح الفاشل على الحامية العسكرية المونكادا في الفترة التي كان قد بدأ يبرز فيها اسم كاسترو، فإنني سأحاول أن أستفيد مما قدمته لي الأحداث من معطيات ومن أفكار تتصل بها في متابعة تطور هذه الشخصية الفذة التي تحمل اسم فيدل كاسترو.

كنت ابتداءاً من عام 1953 أقيم في بودابست ممثلاً للشبيبة العربية في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، وعضواً في قيادة الإتحاد. وطالت إقامتي في بودابست حتى أواخر عام 1957. وهو العام الثاني من العمر الحقيقي للثورة الكوبية. واجهتني في مهمتي الأممية تلك منذ البداية ضرورة الإهتمام بحدثين كان تلازمهما مثيراً لدهشتي. الحدث الأول من حيث أهميته، بالنسبة إليَّ في ذلك الحين، يتمثل في الثورة الجزائرية التي انطلقت شرارتها الأولى في خريف عام 1954. وكانت لها تعقيداتها والتباساتها منذ البدايات بسبب ما رافق قيامها من صراعات في صفوفها ومن مواقف عصبوية قومية ودينية من قادتها ضد الحزب الشيوعي الجزائري الذي تعرّض عدد من قادته ومن كوادره للاضطهاد وللإغتيال حتى عندما تحوّلوا إلى شركاء أساسيين في الثورة. أما الحدث الثاني، الذي وقع في صيف عام 1953، أي قبل عام من الثورة الجزائرية، فيتمثل في عملية المونكادا في كوبا بقيادة فيدل كاسترو، فيما اعتبر حينذاك بمثابة التمرين الأول للثورة الكوبية القادمة. وإذ كنت مسؤولاً في قيادة الإتحاد عن متابعة قضايا الشبيبة في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فإن صديقي الكوبي ريسكيه فالدس (Risquet Valdes) كان مسؤولاً عن قضايا الشبيبة في بلدان أميركا اللاتينية. لكن فالدس سرعان ما غادر بودابست إلى كوبا عشية انطلاقة الثورة في أواخر عام 1955 . وخلفه في المسؤولية رفيق كوبي كان اسمه بورتويندو، الذي

صار بعد انتصار الثورة أحد الوزراء البارزين في الحكومة الكوبية. وجاءتني الأخبار سريعاً بأن فالدس التحق بالثورة. وصار في فترة زمنية قصيرة رفيقاً لكاسترو ومقرباً منه. ثم صار بعد انتصار الثورة أحد أركان الحزب الشيوعي الجديد مكلفاً بمهمات كبيرة في داخل البلاد وفي خارجها. وكان من بين مهماته في النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي مرافقة القوات المسلحة الكوبية التي ذهبت إلى أنغولا لحماية انتصار الثورة ولتأسيس دولة الإستقلال، ولمواجهة التدخل العسكري ضد الثورة الذي كانت تقوده حكومة جنوب أفريقيا العنصرية. أما رفيقه القديم فالدس فيفو فقد ذهب في المهمة ذاتها إلى أثيوبيا لدعم منغستو وهيلا مريم في الإنقلاب الذي قاده ضد الأمبراطور هيلاسلاسي. وكان "الفالدسان" يمارسان وظيفة المسؤولين السياسيين عن الدور الأممي الذي كان مطلوباً من تلك القوات أن تقوم به في هذين البلدين في تلك الفترة. وكانت قد نشأت لي في فترة وجودي في بودابست وخلال زياراتي إلى بلدان أوروبا الشرقية، علاقات صداقة مع عدد من قادة منظمات الشباب والطلاب الكوبيين الذين تسلموا بعد انتصار الثورة مناصب أساسية في الحزب وفي الدولة.

كنت إذن على صلة مبكرة بأخبار الثورة الكوبية، وعلى صلة بعدد ممن صاروا قادتها وقادة الدولة فيما بعد. لكنني لم أزر كوبا إلا في عام 1977 في إطار وفد من الحزب الشيوعي اللبناني كان يقوده الأمين العام للحزب آنذاك نقولا شاوي. وقد سبقني إلى زيارة كوبا كل من رفيقيَّ جورج حاوي في عام 1961 وجورج البطل في عام 1965.

تحولت كوبا وتحوّل معها فيدل كاسترو، بعد انتصار الثورة في عام 1959 وبالأخص بعد العدوان الأميركي الفاشل في خليج الخنازير في عام 1961، إلى مركز الإهتمام العالمي. وكان السؤال المحير لدى المسؤولين الأميركيين يتمحور في ذلك الحين حول الظروف التي جعلت كوبا، الجزيرة الصغيرة في مساحتها وفي عدد سكانها والقريبة جداً من الساحل الجنوبي للولايات المتحدة الأميركية قبالة مدينة ميامي، دولة إشتراكية حليفة للإتحاد السوفياتي وللصين الشعبية ومحط أنظار الملايين من ثوار العالم. وكان فيدل كاسترو

الرمز المثير للقلق بالنسبة إلى الدولة الأميركية العظمى. فقررت أن تمارس إزاء فيدل وإزاء دولته الجديدة سياسة حازمة من خلال التدخل والتآمر والحصار من أجل خنق هذه البؤرة الثورية التي كانت تهدد بوهجها مصالح الدولة الأميركية العظمى في القارة الأميركية. فقرر الإتحاد السوفياتي بالمقابل أن يقدم لها الدعم، حتى ولو على بعد ألوف الأميال منها. فأرسل إليها، بالسفن الحربية في عام 1962 ، صواريخ لتحميها من أي غزو جديد لها بعد عدوان خليج الخنازير. فخلقت تلك الصواريخ بين موسكو وواشنطن أزمة كادت تشعل حرباً كونية. كان بطلا تلك الأزمة خروتشوف وكندي. وانتهت الأزمة التي كنت شاهداً عليها من موقعي في قيادة مجلس السلم العالمي في فيينا في ذلك التاريخ. إذ تدخلت الدبلوماسية في أعلى وأدق وسائطها من أجل إيجاد حل للأزمة. وتمثل الحل بإعادة الصواريخ السوفياتية إلى نقطة انطلاقها مقابل تعهد الإدارة الأميركية بعدم تكرار غزو كوبا.

ما أن توطدت مواقع السلطة الثورية الجديدة بقيادة فيدل كاسترو حتى تحوّل هذا الزعيم الثوري إلى شخصية عالمية من الدرجة الأولى. فصار قطباً أساسياً في حركة عدم الإنحياز. وصار في الوقت عينه ملهماً لحركات ثورية كانت تتفجر في بلدان أميركا اللاتينية بقيادة أحزاب ثورية ناشئة، كان بعضها نقيضاً في سياساته وفي فهمه للثورة لأحزاب شيوعية قديمة وعريقة في تاريخ نشوئها. وكان من بين تلك الحركات ومن أكثرها وهجاً ما تمثل في حركة لاهوت التحرير التي ضمت أساقفة وكهنة ورهباناً لم يترددوا في أن يشكلوا مع شيوعيين ويساريين من شتى المدارس حركات كان بعضها يناضل بالسياسة وبالوسائل الديمقراطية، وكان بعضها الآخر يناضل بالسلاح كوسيلة لتحقيق أهدافه الثورية. وكانت خطب فيدل كاسترو وأحاديثه تشعل الحماس لدى الملايين، ليس في أميركا اللاتينية وحسب ولا في القارتين الآسيوية والأفريقية، بل حتى في قلب القارة الأوروبية في وسط الشباب وفي وسط المثقفين. وكان كاسترو الذي كان قد أصبح زعيم الحزب الشيوعي الكوبي في مؤتمره التأسيسي في عام 1975 يعتبر نفسه صاحب حق في أن يكون مؤسساً لمدرسة في الشيوعية تحمل اسمه، ما دام قد اعتنق الماركسية وبدأ ينهل من أفكار مؤسسها

كارل ماركس. وكان يستند في ذلك إلى الصدى الذي أحدثه في العالم نجاح الثورة التي قادها وأقام على قاعدة انتصارها أول دولة إشتراكية في القارة الأميركية. وكان يحاول من موقعه في المسؤولية على رأس الحزب الشيوعي الكوبي والدولة الكوبية أن يجتهد في إعطاء أفكاره الماركسية سمتها الخاصة اللصيقة ببلده كوبا وبأميركا اللاتينية، وبالشروط الخاصة لهذه المنطقة من العالم. وإذ كان يعود في تحديده لسمات اشتراكيته إلى تاريخ وثقافة وتقاليد القارة الجنوبية التي تميزها عن الجزء الشمالي منها وحتى عن أوروبا، التي منها ومن الغزو الأسباني والبرتغالي بالذات في أواخر القرن الخامس عشر تكونت أميركا الجنوبية، فإنه لم ينجح في جعل كوبا نموذجاً للدولة الإشتراكية ذات الصلة بالعصر الحديث. والجدير بالذكر أن كاسترو برغم كل طموحاته المشار إليها لم يعلن نظرية تحمل اسمه مثلما فعل آخرون من نظرائه من قبله.

تحول كاسترو إلى رمز ثوري كبير بالنسبة إلى الشعب الكوبي وإلى شعوب أميركا اللاتينية، بالنظر إلى كونه شكّل تحدياً للأمبراطورية الأميركية في عقر دارها بعد أن كانت مخابراتها قد عاثت فساداً في القارة على امتداد عقود طويلة وحوّلت بلدان أميركا اللاتينية إلى جمهوريات موز خاضعة لإرادة ومصالح الشركات الاميركية المدعومة من قبل الإدارات الأميركية المتعاقبة.

كان تشي غيفارا الأرجنتيني الأصل شريكاً لفيدل كاسترو منذ المراحل الأولى للثورة حتى انتصارها وبعد تأسيس الدولة الإشتراكية الجديدة في جزيرة الحرية كوبا. لكن غيفارا اختار بعد انتصار الثورة الكوبية أن يتابع كفاحه من أجل تحرير الشعوب المستضعفة في أفريقيا أولاً. وإذ لم يلق في القارة السوداء تجاوباً ممن التقاهم من القادة الثوريين مع أفكاره ومع أحلامه، لأنهم كانوا بحسب تقييمه لهم غير مؤهلين لمثل تلك الحركة الثورية التي كان يحلم بها، عاد أدراجه إلى أميركا اللاتينية ليجد في بوليفيا على وجه التحديد ضالته التي انتهت فيها حياته. وسرعان ما أصبح تشي بعد استشهاده رمزاً كبيراً من نوع آخر للحركة الثورية المعاصرة. وكانت المدرستان الثوريتان، مدرسة كاسترو ومدرسة غيفارا، برغم

اختلافهما في الأسلوب وفي الشروط تكملان الواحدة منهما الأخرى ، لا سيما بعد استشهاد غيفارا. وفي حين اختار غيفارا الأدغال في بوليفيا لإطلاق ثورة جديدة فيها تمتد إلى سائر بلدان أميركا اللاتينية، ثم أصبح باستشهاده فيها بمثابة مسيح ثوري جديد، انطلق كاسترو في نظرياته الثورية وفي سياساته العملية ومن موقعه في السلطة لبناء أول دولة إشتراكية في القارة الأميركية. وصار في المراحل الاولى من زعامته لاسيما خلال انفجار النزاع السوفياتي – الصيني يستند إلى الدعم المادي الذي كان يقدمه الإتحاد السوفياتي لبلاده، ويميل في سياسته في العمل الثوري إلى موقف الصين. وكان من العادات السيئة للقادة السوفيات، التي دفعوا ثمنها باهظاً ودفّعوا أشقاءهم وحلفاءهم ثمنها الباهظ كذلك، أنهم كانوا يقرنون مساعداتهم الأممية لهؤلاء الأشقاء والحلفاء، دولاً وأحزاباً شيوعية وحركات تحرر وطني ومنظمات ديمقراطية عالمية (وهي كانت مساعدات سخية في الأغلب، وكانت تتم على حساب رفاهية الشعب السوفياتي)، كانوا يقرنون تلك المساعدات بالتدخل الفظ في الشؤون الداخلية لأشقائهم وحلفائهم، سواء في السياسة لكي تتطابق سياساتهم حرفياً مع سياسة الدولة السوفياتية، أم في الإقتصاد لكي يكون البناء الإقتصادي في بلدانهم صورة عن النموذج السوفياتي لبناء القاعدة المادية للإشتراكية. فأدى ذلك التدخل السوفياتي في شكله الفظ إلى مواقف معترضة على سياسات الإتحاد السوفياتي متمايزة عن تلك السياسات من قبل بعض قادة الدول الإشتراكية. وكان الكسندر دوبتشك في تشيكوسلوفاكيا في ربيع براغ المثل البارز على ذلك التدخل السوفياتي السياسي والعسكري.

وفي الواقع فإن متابعة مواقف كاسترو، في المرحلة التي كان فيها وهج الثورة الكوبية قوياً، كانت تعطي للمراقب الإنطباع بأن برغماتيته السياسية الثورية كانت تقوده إلى اتخاذ مواقف زعيم لدولة كبرى، أو قائد لحركة ثورية ذات طابع أممي. وبرزت مظاهر ذلك في مواقفه المعلنة من الأحداث التي كانت تحصل في أميركا اللاتينية، بل حتى في القارتين الآسيوية والأفريقية. كما برزت في طريقة تعامله مع صناع تلك الأحداث. وبرزت أيضاً في موقفه من الأحزاب الشيوعية في تلك البلدان، وفي طريقة تعامله مع قادتها ومع

سياساتها. وقد كانت لحزبنا الشيوعي اللبناني تجربة معه خلال زيارة وفد الحزب الذي أشرت إليه آنفاً. وكان ذلك في عام 1977. كان اللقاء مع كاسترو حميماً وممتعاً وغنياً. وقد جرى ذلك اللقاء في مقر إقامة الوفد، كما كان يفعل فيدل مع كل الوفود التي كانت تزور كوبا. تميّز اللقاء بالصراحة، من قبلنا ومن قبله في إعلان كل منا مواقفه كما هي من دون مراعاة لأية اعتبارات. لكننا اختلفنا معه حول تقييم الموقف من التدخل العسكري السوري في لبنان الذي كان قد حصل في عام 1976. وجرى نقاش بيني وبينه، بعد مداخلة طويلة كلفني الرفيق نقولا شاوي بأن أقدمها بالنيابة عنه وعن الوفد، لشرح موقفنا من الوضع في لبنان وفي المنطقة. وكان موقف كاسترو المختلف مع موقفنا أقرب إلى الموقف السوفياتي الذي كنا نحن الشيوعيين اللبنانيين مختلفين معه اختلافاً شديداً. وكانت وجهة نظر كاسترو في تلك المسألة أن لسوريا دوراً في المنطقة يخدم الموقف العام للحركة الشيوعية، بالنظر لما كان يعتبره فيدل مواقف معادية للإمبريالية في السياسة السورية. واقترح علينا، كلبنانيين وكحزب شيوعي لبناني تحديداً، أن نأخذ ذلك في الإعتبار عندما نحدد مواقفنا السياسية من الأحداث الجارية في منطقتنا وفي العالم. ولم نستطع إقناعه بأن ذلك الدخول العسكري السوري إلى لبنان كان مجازاً من أميركا ومن إسرائيل، وإن ذلك التدخل لم يكن ذا صلة بالشعار المعلن من القيادة السورية، المتمثل بالعمل لإيقاف الحرب الأهلية وبوضع أسس للسلام في لبنان. لكننا حرصنا أن نؤكد للرفيق فيدل بأن موقفنا الرافض لذلك التدخل السوري في لبنان في صيغه وأدواته ووسائطه المسيئة للعلاقات التاريخية بين البلدين والشعبين والشقيقين الجارين لم يكن موقفاً معادياً لسوريا. إذ هو كان في جوهره اعتراضاً مشروعاً من قبلنا على ذلك الشكل الإستبدادي لعلاقة الدولة السورية بدولة لبنان الشقيق الجار لسوريا. وأكدنا له بالمقابل على ضرورة السعي من قبل الدولتين والشعبين لإقامة علاقة من نوع مختلف بينهما، تستند إلى الإحترام المتبادل من كل منهما لاستقلال وحرية وسيادة وخصوصية الآخر وإلى التكامل بينهما في شتى المجالات تحقيقاً لمصالحهما المشتركة وترسيخاً للأخوة التاريخية بينهما.

قاد فيدل كاسترو كوبا في ظروف شديدة الصعوبة. واستطاع أن يكسب حب شعبه له بالكاريزما التي تميز بها وبطريقته البسيطة في مخاطبة مواطنيه وبالحضور الدائم في كل الظروف الصعبة إلى جانب شعبه، وفي مواجهة الحصار المفروض عليه.

كان كاسترو يكثر من أحاديثه الصريحة وبالتفاصيل إلى شعبه في كل شأن من الشؤون التي تخصه، وفي كل ما يتصل بالأحداث الجارية في العالم. إذ كان يرى من واجبه ومن حق شعبه عليه أن يجعله عارفاً بما يجري في العالم من أحداث، ومتعايشاً مع تلك الأحداث، بواقعية وباستنفار دائم تحسباً لما يمكن أن تحدثه تلك الأحداث في كوبا من انعكاسات سلبية. وكانت نبرة الصدق في كلماته مصدر حب شعبه له. وما أكثر الظروف الصعبة التي مرت على شعبه. لكن هذا الشعب ظل مرتبطاً بدولته وبزعيمه وبالخيارات السياسية لكليهما. وهذا ما جعل المؤامرات التي لم تتوقف تفشل في كسر شوكة هذا البلد وتعجز عن إضعاف صمود شعبه.

كان الحصار المفروض على كوبا يضعفها إقتصادياً، ويجعل الكوبيين أما م حالة لا خيار لهم فيها إلا الصبر على الصعوبات والتقشف والتصدي للعدوان والتآمر الخارجيين، وانتظار معجزة ما. وكان سر المعجزة يتمثل ربما في التفاؤل التاريخي الذي كان من تقاليد الشيوعيين. بل هي كانت الحتمية التاريخية التي كنا نستند نحن الشيوعيين إلى أفكار ماركس للتأكيد بأن الشعوب ستنتصر على جلاديها في نهاية المطاف وتحقق حريتها وسعادتها مهما كبرت التضحيات ومهما طال الزمن. وكان يشكل فيدل بالنسبة إلى الكوبيين خلال فترة طويلة رمز هذين الصمود والحلم بالسعادة الآتية. وكان أمام فيدل بالمقابل أن يختار، في الظروف الصعبة، الطريق الذي يؤمن الحد الأدنى من حاجات شعبه في صموده الأسطوري. ولم يجد هذا الطريق إلا في خياره الأساسي الأول، المتمثل بالإستمرار في التمسك بالإشتراكية. وهي كانت إشتراكية مثل سائر إشتراكيات ذلك الزمن. ولم يحاول كاسترو أن يعطي لهذه الإشتراكية مثل سواه إسماً يرتبط باسمه. بل هو ترك للكوبيين خصوصاً، ولأصدقاء كوبا في أميركا اللاتينية وفي العالم، أن يعطوا لهذا الطريق

الإسم الذي يرتأونه مقروناً بالتنويه بالنموذج الحي المتمثل بكوبا وبتجربتها الإشتراكية في الشروط التاريخية والجغرافية لموقع هذه الجزيرة الصغيرة في منطقة الكراييب قبالة الساحل الجنوبي للولايات المتحدة الأميركية.

كان كاسترو يتعامل مع قضايا بلدان العالم الثالث، المتمثل بالقارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، فيما يشبه الأب الروحي لشعوبها. وكانت تلك القضايا، السياسية منها والإقتصادية والإجتماعية، مصدر اهتمامه الدائم ومصدر همومه المتصلة بهموم دولته الكوبية وهموم شعبه. وكان يرى في الدول الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، المصدر الأساسي لمتاعب ولصعوبات ولخراب بلدان العالم الثالث. وقد اتخذ من موضوع المديونية موقفاً حازماً وصارخاً حوّل كوبا بقيادته إلى ما يشبه المركز العالمي للإحتجاج على الدول الدائنة وعلى مؤسساتها المالية الكبرى. لكنه لم يتحدث بصراحة عن مسؤولية الدول المستدينة وعن فساد قادتها، وعن الدور الذي لعبه هؤلاء القادة في تخلف بلدانهم وفي خرابها. ولعله كان يعتبر، من دون أن يصرح بذلك، أن هؤلاء القادة هم شركاء لأولئك الطغاة في الدول الكبرى في تدمير بلدانهم، أو أنهم كانوا أجراء عند هؤلاء الطغاة أرباب الرأسمال المعولم. ومن طرائف مواقفه في هذا الإتجاه مقال له كتبه، وهو في دار النقاهة بعد خروجه من المستشفى، يتحدث فيه بالأرقام عن محاولات تقوم بها الشركات الرأسمالية الكبرى لتخفيض نفقات المحروقات، من خلال تحويل المواد الغذائية إلى وقود. ويعني ذلك، من خلال الشرح الدقيق الذي قدمه كاسترو في مقاله، حرمان الشعوب الفقيرة من حاجتها إلى المواد الغذائية باستخدام هذه المواد لتخفيض نفقات المحروقات في الكهرباء والوقود. ويقول كاسترو بالنص في مقاله، وهو بعنوان" أكثر من ثلاثة آلاف مليون شخص في العالم محكومون بالموت المبكر جوعاً وعطشاً" : "أظن أن تقليص جميع المحركات التي تستهلك الكهرباء و الوقود، بالإضافة إلى إعادة استخدامها، هو حاجة ملحة وعاجلة للبشرية برمتها. لكن المأساة لا تكمن في تقليص هذه النفقات من الطاقة. بل هي تكمن في فكرة تحويل المواد الغذائية إلى وقود".

واضح من المقال أن كاسترو يعبّر فيه عن اعتراضه على ما كان قد بدأ به لولا في البرازيل منذ فترة لتحرير اقتصاد بلاده من التخلف ومن الأزمة المزمنة التي حولت الشعب البرازيلي إلى شعب فقير في بلد عظيم الثروات والطاقات. إذ اختار لولا الطريق ذاته تقريباً، لكن من موقع سياسي وإيديولوجي مختلف الذي اختارته الصين لتحقيق تقدمها بقيادة دنغ هسياو دينغ باسم اقتصاد السوق وبالتعاون مع الرأسمال العالمي. إلا أن كاسترو لم يكتف بذلك في سياسته إزاء بلدان وشعوب القارات الثلاث. إذ هو حاول حتى آخر لحظة من حكمه أن يقدم لفقراء تلك البلدان المساعدة على مواجهة صعوباتهم بالقدر الذي كانت تسمح به إمكانات كوبا المحاصرة. وهي كانت مساعدة رمزية متنوعة ومتعددة في أشكالها. وكان أبرز مجالات تلك المساعدة يتمثل في المجال الطبي. فقد أرسلت كوبا إلى بوليفيا وحدها تجهيزات طبية كاملة مع أطقمتها لخمس مستشفيات. بل إن كاسترو لم يتردد في إرسال المساعدات لمنكوبي الإعصار في الولايات المتحدة الأميركية الذي أغرق بعض مدنها. لكن الإدارة الأميركية رفضت تلك المساعدة.

ولعل من أمتع الكتب التي تعبر عن أفكار كاسترو والتي تستحق القراءة، هو الكتاب الذي يتضمن حواراً شاملاً أجراه معه الراهب الدومينكاني البرازيلي فراي بيتو. وهو حوار يجيب فيه فيدل بكثير من الصراحة والدقة والمسؤولية عن عدد كبير من الأسئلة ذات الصلة بكوبا وبالصعوبات التي كانت تواجهها، وذات الصلة بتجربتها الإشتراكية، وبمواقف كاسترو السياسية وبآرائه الفكرية. ومن أهم القضايا التي تعرض لها كاسترو في أجوبته هي موقف الثورة الكوبية من الدين الذي استفاض فيه متناولاً في شكل خاص تحليله للظاهرة المتمثلة بحركة لاهوت التحرير. ويؤكد كاسترو في هذا الصدد بأن الدولة الكوبية حرصت حرصاً خاصاً وقاطعاً على ألا تقدم نفسها للشعب الكوبي وللشعوب الأخرى كدولة معادية للدين. لأن مثل هذا الموقف، كما يقول فيدل، سيقدم خدمة كبرى للرجعية في كوبا وفي بلدان أميركا اللاتينية وفي العالم. وكان استقبال كاسترو للبابا يوحنا بولس الثاني في كوبا في أواخر تسعينات القرن الماضي تأكيداً من قبله لموقفه المشار إليه من الدين. وقد

قيمنا إيجابياً، المطران بشارة الراعي قبل أن يصبح بطريركاً وكاتب هذه السطور، تلك الزيارة في حديث واسع أجرته معنا نحن الإثنين إذاعة مونت كارلو. إلا أن الكتاب الآخر الذي يعتبر الأهم من بين الكتب التي تعبّر عن أفكار فيدل، بحسب ما يؤكده الذين قرأوه باللغة الأسبانية، هو الكتاب الذي صدر في عام 2006 تحت عنوان "مئة ساعة مع فيدل كاسترو". وهو حوار أجراه معه رامونيه مدير مجلة الموند ديبلوماتيك، وأشرف على تصحيحه وتدقيقه فيدل شخصياً.

لم يقبل فيدل كاسترو أن يقلد غورباتشوف في مشروعه الذي حمل اسم البرسترويكا، أي إعادة البناء للتجربة الإشتراكية في الإتحاد السوفياتي التي كان الخلل البنيوي يراكم صعوباتها ويجعلها على حافة الإنهيار. وقد أعلن كاسترو، بعد انهيار التجربة السوفياتية، أنه كان على حق في موقفه من خيارات غورباتشوف الفاشلة. لكن كاسترو تردد، بالمقابل في سلوك الطريق الذي اختاره دنغ هسياو بينغ بعد رحيل ماوتسي تونغ، الطريق الذي حافظ على مركزية الدولة الصينية في السياسة وفي الأمن ضماناً لوحدة الصين، وفتح الباب بالتدريج أمام نوع جديد من الحرية الإقتصادية، لم ير الحزب الشيوعي الصيني فيها ما يتعارض مع استمرار التزامه بالشيوعية التي نادى بها ماركس. ذلك أن كاسترو كان يرى أن كوبا ليست الصين وإنها لا تشبهها في أي شيء. فهي جزيرة صغيرة في جوار دولة عظمى معادية لها ولنظامها. وفي تقديري فإن جوهر موقف كاسترو يتمثل في الخوف الذي تولد عنده من سلوك طريق الإصلاحات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، اسوة بما فعل آخرون في بلدان إشتراكية سابقة أو في ما قام ويقوم به آخرون في بعض بلدان أميركا اللاتينية وفي بعض البلدان الآسيوية والأفريقية. خاف كاسترو من أن تقود هذه الإصلاحات إلى خسارة التجربة الإشتراكية في بلاده. إذ أن هذا النوع من الإصلاحات، سواء في كوبا أم في سواها من البلدان المشابهة لها في المناطق الأخرى من العالم، يثير مسألة شديدة التعقيد تتعلّق في جوهر هذه الإصلاحات وفي استهدافاتها وفي طرائق تحقيقها وفي الإجراءات المتصلة بها. ولا يستطيع أحد أن يقدم لأحد وصفة جاهزة لها.

فالمسؤولون عن بلدانهم يستطيعون من مواقع السلطة في نظام ديمقراطي في دولة حق وقانون بالتعامل مع مجتمعاته، إذا كانوا مهمومين بتحقيق تقدم بلدانهم، أن يحددوا طبيعة هذه الإصلاحات ووظيفتها، وأن يقدروا ضرورتها بالواقعية وليس بالشعبوية ولا بالخضوع لنصائح المؤسسات المالية الدولية، ويستطيعون أن يقدروا مدى قدرتهم على الوفاء بشروط تلك الإصلاحات وبمدى تحمل شعوبهم تبعاتها المباشرة بانتظار نتائجها الإيجابية المحتملة. وربما كانت تلك الإعتبارات في جوانبها المختلفة هي التي جعلت كاسترو يقدر بأن كوبا لا تستطيع في وضعها الخاص أن تتحمل تبعات مثل تلك الإصلاحات. فنأى بنفسه عنها من دون أن يجد البدائل التي تنقذ بلاده مما كانت عليه من أوضاع صعبة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في ظل الحصار. ولأن مسؤولياته كانت كبيرة ومرهقة بالنظر للثقة التي منحه إياها الكوبيون، فإنه كان شديد القلق وشديد الوجع إزاء ما كانت تواجهه كوبا من مفاعيل الحصار. لكنه كان شديد الإصرار في الآن ذاته على الإستمرار في نهجه من دون تنازلات خوفاً من أن يخسر تجربته وتاريخه وكل ما ارتبط بالوعود التي قدمها لشعبه باسم الثورة وباسم مرجعيتها الإشتراكية، منظومة أفكار وقيم إنسانية وحرية وتقدم وعدالة اجتماعية. وكان يستند في ذلك إلى ما تمثل له من حرص عند أكثرية الكوبيين على التمسك بالتجربة وخوفهم من أن يسقط النظام الذي دفعوا ثمناً باهظاً من أجل أن يقوم ويؤمن لهم حريتهم. المصدر الأول لذلك الخوف المفترض عند الكوبيين هو العدوان الخارجي الذي شهدوا نماذج متعددة ومتكررة منه على يد بعض المهاجرين الكوبيين المدعومين من المخابرات الأميركية. أما المصدر الثاني لذلك الخوف فيتمثل في تفاقم وتعاظم النتائج التي كانت تولّدها الصعوبات من جراء الحصار الظالم المتواصل منذ عقود. وفي حال نجاح التدخل الخارجي في إسقاط النظام سيكون الشعب الكوبي برمته هو الذي سيدفع الثمن الباهظ لذلك. إذ هو سيخسر حريته. وسيخسر منجزاته التي قدمتها له الثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو.

بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، وانهيار نموذجه الفاشل في التجربة الإشتراكية ازداد الوضع في كوبا تعقيداً. وازدادت معه مسؤولية فيدل كاسترو بالذات. وظل ذلك الوضع الصعب يضغط عليه إلى أن أتلف صحته، من دون أن يمس طاقته على الصمود، وعلى الإستمرار شامخاً في وجه خصومه في الداخل وفي الخارج. لكن أملاً كان قد بدأ يبرز في مطالع الألفية الثالثة تمثل في ما كانت تشهده أميركا اللاتينية من تحولات. وهي تحولات جديدة غير مسبوقة تمثلت بتحرير العدد الأكبر من بلدان القارة الجنوبية من السيطرة المباشرة للولايات المتحدة الأميركية ولمخابراتها على مقدراتها من خلال ما كان يعرف بجمهوريات الموز. وهي تحولات كانت تحصل في اتجاهين: شعبوي وعقلاني. فقد وصل لولا الزعيم العمالي اليساري إلى رئاسة الجمهورية في البرازيل في دورتين متتاليتين. وتحوّلت الشيلي إلى دولة ديمقراطية على أنقاض حكم الدكتاتور المنهار بينوشيه. وتعاقب على رئاسة البلاد ممثلون للحزب الإشتراكي. وعاد الساندينيون إلى نيكاراغوا بقيادة دانيال أورتيغا الذي كان التدخل الأميركي قد أطاحه قبل حوالي عقدين من الزمن. واستمر الشعبوي شافيز في السلطة برغم التآمر الأميركي لإطاحته. ونجح الهندي الأحمر ايفومورالس في الوصول إلى الرئاسة في بوليفيا بالإنتخاب انتقاماً لتشي غيفارا. وانتصر الشعبوي كورييا على خصمه اليميني في الوصول إلى رئاسة الدولة في الأكوادور. واقترب اليساري المعارض في المكسيك مانويل لوبيز أوبرادور من الوصول إلى سدة الرئاسة وصار على قاب قوسين أو أدنى منها. وقد ذهب جميع هؤلاء القادة، بعد انتخابهم رؤساء لبلدانهم، إلى كوبا للقاء فيدل كاسترو، وللتأكيد له بأنهم متضامنون معه ومع كوبا، وأنهم لن يسمحوا لأميركا باستباحة جزيرة الحرية. وبدأت تتسارع الخطوات لإنشاء اتحاد يضم عدداً من بلدان أميركا اللاتينية شبيه بالإتحاد الأوروبي. وهي تحولات أنعشت الأمل بالنسبة إلى الكوبيين، وأعادت إلى فيدل كاسترو بعضاً من عافيته التي أرهقتها المسؤولية والصعوبات من جراء الحصار، والمؤامرات الخارجية المتواصلة.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه، ويطرحه الكوبيون، ويطرحه الكثيرون من أصدقاء كوبا في العالم، هو السؤال التالي: ماذا بإمكان هذه التحولات الجارية في أميركا اللاتينية أن تقدم لكوبا في مواجهة صعوباتها، وفي التصدي للمؤامرات المتتالية عليها ؟

ربما ستكون المراهنة، بالإضافة إلى هذه التحولات التي تشهدها أميركا اللاتينية، على ما ينتظر الولايات المتحدة من تراجع في سطوتها، وفي خطتها للهيمنة على العالم، بفعل ما تواجهها سياستها الغاشمة من فشل، ومن اعتراضات كبرى عليها، تجتاح المدن الأميركية بالذات، وتجتاح العالم. لكن العولمة البديلة، العولمة الإنسانية التي تسعى قوى التقدم والديمقراطية في العالم لكي تضع حداً لعولمة الرأسمال الفالت من عقاله، هذه العولمة ستحتاج إلى زمن ليس بالقصير لكي تكون قادرة على جعل وحدة العالم، التي تتم في شكل موضوعي في ظل هيمنة الرأسمال المعولم، وتأميناً لحاجاته في التوسع، وحدة إنسانية.

ستبقى المراهنة، في كل الأحوال، بالنسبة إلى الكوبيين بقيادة فيدل كاسترو، وبالنسبة إلى جميع شعوب العالم، على النضال الطويل، الذي لا بد منه، ولا غنى عنه، من أجل تحقيق المطامح العريقة لشعوب العالم في الحرية والتقدم والعدالة الإجتماعية، في تلازمها كشرط أساسي، وليس في الفصل بينها. لكنه سيكون على القيادة الكوبية، فيدل كاسترو بالذات وشركاؤه ومكملو طريقه في قيادة البلاد، أن يبحثوا عن الطريق الواقعي الجديد الذي يحفظ لكوبا حريتها، ويحقق لها تقدمها، ويحول دون أي احتمال، ولو كان مستبعداً، يمكن أن يقود إلى خسارة هذه الحرية. لكنه سيكون محتوماً على الجيل الجديد في القيادة الكوبية أن يبادر إلى القيام بإصلاحات سياسية وإقتصادية وإجتماعية، ليس بالضرورة تقليداً للصين أو لسواها، بل انطلاقاً من واقع كوبا بالذات، موقعاً جغرافياً وسياسياً، وتجربة تاريخية حافلة بالأحداث وبالتطورات. ويبدو لي، كمراقب من بعيد، أن في الأفق ما يشير إلى البدء في مثل هذه التحولات التي ستفتح أمام كوبا طريقاً جديداً إلى المستقبل، تستكمل فيه، في شروط مختلفة، تجربتها التاريخية القديمة.

إلا أن كاسترو حين قرر التخلي بصعوبة عن موقعه لشقيقه راوول لم يتخل عما اعتبره حقه في إبداء رأيه في الشؤون العامة لبلاده. لكنه كان قد أصبح أقل قدرة على تحديد مواقفه وآرائه بالدقة التي كان يمتلكها في شبابه وفي كهولته. وقد عبّر عن ذلك الخلل في قدراته ما كان ينشره في مجلة "غراما" عشية خروجه من موقعه في سلطتيّ الدولة والحزب، قم بعد أن تخلى عنهما لشقيقه راوول. وفي أي حال فإن من يعرف فيدل ومن يعرف الوضع الحقيقي في كوبا على امتداد تاريخها الحديث في ظل اشتراكية كاسترو يستطيع أن يدرك معنى العناد في تمسك كاسترو بموقعه لفترة طويلة حتى وهو يعاني المرض والشيخوخة وفي تمسكه في الآن ذاته بنموذجه الكوبي الكاستروي للإشتراكية الذي لا يختلف في الجوهر عن النموذج السوفيات الذي انهار بعد ثلاثة أرباع القرن. كان يمانع الوقوع في الفشل وهو مدرك بقلق النتائج التي كاكنت تواجه كوبا في كلا الحالتين، حالة الإستمرار بعناد في مواجهة الحصار من دون إصلاحات، وحالة الدخول في إصلاحات غير مأمونة العواقب.

فيدل كاسترو يشكل في تاريخ الحركات الثورية المعاصرة ظاهرة فريدة بسماتها الخاصة. وكل ظاهرة تحمل معها بالضرورة فرادتها.

وبانتظار ذلك التاريخ القادم سنظل نتذكر أن القرن العشرين قد حمل إلى هذا العالم ظاهرة تحمل اسم فيدل كاسترو، فيما يشبه الأسطورة.